الدّين

الأزهر الصحراوي

سافر أبي للعمل من أجلنا في تلك السنة التي جاء فيها الصّيف قبل الربّيع، تتالت علينا فيها المصائب فزارنا الجرادُ ولم يترك للمناجل شيئاً سوى بعض الأشواك الجافّة الّتي استعصت عليه. كان أبي يعود إلى البيت قبيل القيلولة مقطّب الجبين فيرمي بمنجله ويستلقي على الحصير ثمّ يضطجع كثور فيستحوذ على مساحة هامّة من البيت الصّغير. وكان كثيراً ما يشتم أمّي حين تنزعج من رائحة قدميه النّتنتين وتقول له وهي تتصنّع الشفقة: «سيصيب المرض رجليك، سيقتلك الوسخ...». وكنتُ أنا وعليّ إذا ما مللنا طعمَ الوجبة المتكوّنة من الخبز والحليب أو الخبز والبصل نقصد منزلَ جدّنا الّذي لا يبعد عنّا كثيراً، فيكرمنا وتحسن إلينا زوجته وتبعث إلى أمّي ببعض الخضر والغلال وزيت الزيتون والفلفل الأحمر المرحيّ، ثم نعود أدراجنا إلى البيت. وذات يوم كنتُ جالسة بجانب أمّي أعلّمها كتابة بعض الأعداد على لوحتي، فهي لا تعرف أبسطَ شيء في الحساب وحتّى سنّها لا تعلم من أمره شيئاً. وكان عليّ يضرب على طبل صنعه لتوّه، وكان أبي قد أخذ البقرة والحمار إلى العين، وإذ بأمّي تقف مذعورة. فنظرتُ إلى حيث تنظر فإذا الناس يتراكضون إلى منزل جدّي. فركضنا دون أن نعرف السبّب. ولّما اقتربنا سمعنا نواحاً وجلبة ودخلنا، فوجدنا جدّي جثة هامدة والنسوة من حوله يندبن ويعددن ويضربن بأيديهن على أفخاذهنّ. فانخرطت أمّي في النواح، وجعل علي يبكي، أمّا أنا فقد بُهتُّ. جاء أبي فأحاط به الرجال، ورأيت الدموعَ غزيرةً على خدّيه، واستغربت كيف يَستطيع الرجلُ أن يبكي. ومن الغد جهّزوه للدفن وأخذه الرجالُ على أكتافهم إلى القبر. وبعد أسبوع جاء رجلان فأخذا بقرتنا وعِجْلَها وقالا له بصوت دافئ: «بقية الدَّيْن حاول أن تتدبّره بعد الأربعينية». ثم انصرفا. فدخلت أمّي إلى البيت وجعلتْ تشهق، أمّا أبي فقد جلس على حجر أمام البيت يفكّر، ولّما أيقن من أنّها هدأتْ قال لها: «سأذهب غداً للشّغل في إحدى المدن... وإن أنا بقيت هنا سنموت جوعاً وسيحتقرني النّاس عندما تكثر ديوني...».

ولّما أصبح الصّباحُ وَضَعَ بَعضَ الأغطية والملابس في كيس ثمّ جعل يكلّم عليّاً بصوت مسموع: «سأعتمد عليك في غيابي، لا تزعج أمّك ولا تضرب أختك.. إنّ شقائي من أجلكم يا علي».

انطلق أبي في ذلك الصباح الذي احتجبتْ فيه الشمسُ وعلى ظهره رزمة. وكانت أمّي في ذلك الحين تحاول مسكَ دجاجة حَنَتْ على بيضة واحدة ثمّ شرعتْ تبني لها ما يشبه العشَّ وتهيّئُ تحتها كميّةً من البيض لا تعرف عددها. ثمّ دخلت برأسها في القنّ، وكانت الدّجاجةُ تصيح بصوت مزعج ومتقطّع بعث فيّ قلقاً إضافيّاً وأنا أتابع بالنّظر أبي الذي كان يمشي في الطّريق الممتدّ وكأنّه يمشي إلى الخلف، فقد كانت خطاه ثقيلة وصار يتصاغر كلّما ابتعد أكثر حتّى أخفاه الجبل. وكنت أظنّ أنّ المدينة التي سيقصدها هي هناك، وراء ذلك الجبل الشامخ. ولّما يئست من رؤيته دخلت البيتَ، فوجدت أمّي باكية، وعندما أحسّت بوجودي جذبتني إليها وطوّقتني وتباكينا طويلاً...

فرّخت دجاجتنا ودأبت أمّي على حماية الفراخ التي كبرت مع مرور الأيّام فصارت ديكة ودجاجات.. «اليوم باضت الدّجاجة التي تركها والدك بيضةً... أنظري لقد صار فرخ الدّجاجة التي تركها والدك بيضة دجاجة.. اليوم مات آخر ديك تركه والدك بيضة..». وهكذا اختلطت الأمور على أمّي ولم تعد تميّز بين الدّجاج الذي تكاثرت أعداده وتقاربت أعماره... إلى أن كبر أخي وكبرت أنا وصرت أدرس بالمعهد فعلّمنا أمّنا القراءة والكتابة والحساب، وصرنا نؤرّخ جميعاً لهجرته بالميلاد والهجرة ولم يعد أبي إلى حد اليوم من الهجرة.

تونس